تأمـــــلات فـــي الماركسيـــــة

(٣.٢)

د. فالح عبد الجبار

ثانيا: الماركسية ونظرية المعرفة

مثلما اقترحت التخلي عن وهم وجود "مادية تاريخية"، واحلال فكرة وجود "نظرة ماركسية الى التاريخ"، اقترح ايضا التخلي عن وهم آخر هو وجود "مادية ديالكتيكية" كاملة، ناجزة، هي الشكل "الوحيد" والأرقى للمعرفة.

تقوم المادية الديالكتيكية على عمودين، العمود الاول هو اولوية المادة على الوعي، وكون الوعي نفسه هو نتاج تطور شكل ارقى من المادة (الدماغ البشري)، والعمود الثاني، ان هناك "قوانين" للديالكتيك تنظم عمليات الطبيعة والمجتمع والفكر.

ان فكرة اولوية الوعي على المادة او اولوية المادة على الوعي قديمة قدم الفلسفة، والنظرات الفلسفية الاولية السابقة لها. وان القول بأولوية المادة على الوعي قديم قدم المادية اليونانية نفسها، شأن الديالكتيك، ولنا الملاحظات التالية:

أ –تقوم مادية القرن التاسع عشر، ونظرية المعرفة اللصيقة بها على ثنائية الذات والموضوع. الذات الواعية، والواقع الموضوعي، موضوع الوعي. هذه الثنائية هي موضع اعتراض منذ بداية القرن العشرين.

فالوحدة الاولى للمعرفة ليست ثانوية (ذات وموضوع)، بل رباعية:

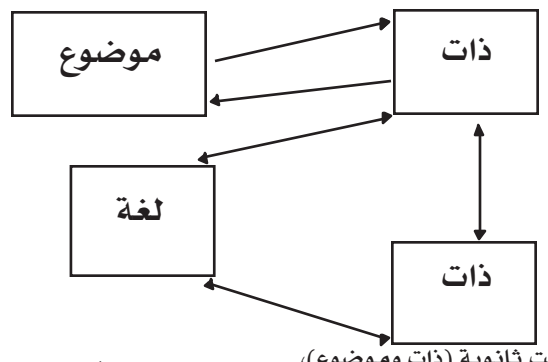

ذات عارفة موضوع معرفة بتوسط اللغة كنظام اشارات لخزن المعرفة ونقلها، وذات اخرى تنقل لها المعرفة.

نحن لا ندخل الى أي ميدان اجتماعي بدون توسط اللغة، والدماغ الخازن لاشارات المعرفة المكونة بدورها من نظام معقد (دال –مدلول، اشكال –اصوات –علامات... الخ).

ب –ان نظم المعرفة حبيسة في نظم ثقافية (ثقافات قومية، ثقافات محلية، ثقافة عالمية متداخلة مع الثقافتين القومية والمحلية).

ج –ان الدراسات اللغوية (من البنيوية الى ما بعد الحداثة) قدمت اكتشافات مهمة انعزل عنها الماركسيون بالكامل تقريبا (اضطهاد باختين ابرز مفكر في هذا الباب داخل بلاده –روسيا)، من سوسير، اول بنيوي لغوي، الى نعوم تشومسكي احدث العباقرة في هذا الميدان.

د –ان الفلسفة نفسها، التي كانت علم العلوم، تقلصت اليوم الى مجرد حقل صغير يعنى بعلم المعرفة (الابستمولوجيا)، ويشمل المنطق.

هـ – ان علم المنهج Methodology الذي كان اختصاص الفلسفة وركنها الأعز، انفصل عنها، وبات لكل علم منهجه (مناهج علم الاجتماع، مناهج الاقتصاد، مناهج الانثروبولوجيا، مناهج الفيزياء وهلمجرا).

و –ان منطق هيغل الذي لخصه انجلز في كتابيه (انتي دوهرنغ وديالكتيك الطبيعة) يقف متخلفا الآن عن انجازات العلوم الفلسفية وبخاصة في مباحث المعرفة، وان الزمن قد تجاوزه بشوط كبير.

ز –ان علم المعرفة لم يكتف بالخروج عن أسر الفلسفة بل دخل ضمن املاك علم تشريح وفسلجة الدماغ، وعلم النفس.

هل هناك حاجة الى نظرية معرفة خاصة، جامعة، مانعة، في هذا الباب؟ لا اظن. لأنه اولا لا توجد نظرية جامعة، مانعة، بل توجد فرضيات متوسعة وبحث متصل. ولأنه ثانيا تجري هذه البحوث في ميادين اختصاص لا قبل لفرد او حركة ان تلمّ بها.

هل ننقطع عن الاطلاع على هذه الميادين؟ كلا. بل ان ما ألمّ بالماركسية من خور وتراجع يرجع في جانب منه الى انعزال القائمين على فكرها عن تيارات العصر الفكرية الكبرى: البنيوية، علم النفس، ما بعد البنيوية، التفكيكية، او عن مدارس ماركسية مهمة مثل مدرسة فرانكفورت، او مدرسة تشومسكي السنديكالية.

ثالثا: الماركسية والمجتمع

درس ماركس بنية المجتمع الرأسمالي، انطلاقا من انجازات المؤرخين الفرنسيين عن الطبقات الاجتماعية، ومن كتابات غيرهم عن بنية "المجتمع المدني"، أي الرأسمالي، (مثل جروتيوس، ومونتسيكيو، وهيغل).

اعتبر ماركس العلاقة بين العمل ورأس المال هي الجوهر البنيوي الذي ينبغي فهم كل العلائق الاجتماعية، في اطاره، وعلى اساسه.

لم يأخذ ماركس اية امثلة من خارج اوربا، لأن الرأسمالية لم تتطور بعد خارجها. كما لم يأخذ جل امثلته الملموسة إلا من بريطانيا وفرنسا بشكل اساس.

رسم ماركس في التجريد النظري طبقتين خالصتين هما الرأسمال = الرأسماليين من هنا، والعمل = العمال من هناك. وهذا التجريد ضروري لدراسة الظاهرة بشكلها النقي. لكن دراسات ماركس الاخرى، اشارت الى وجود طبقات اخرى: الفئات الوسطى (ما يسمى بالبرجوازية الصغيرة)، الفلاحون، الانتلجنسيا. كما ان الرأسماليين، عنده، ليسوا كتلة، نتذكر كتابه "الثامن عشر من برومير لويس بونابرت" (او ثلاثيته الشهيرة في فرنسا) هناك رأسمال صناعي، ورأسمال مصرفي، ينميان مصالح عديدة. كما ان الطبقة العاملة ليست بالكتلة المتجانسة، الموحدة، ولا بالكتلة الجامدة.

اعتبر ماركس الملكية او انعدامها اساس الموقع الطبقي. كما اعتبر المراتب الاجتماعية القديمة (الطبقات الاقطاعية) قائمة على معايير المكانة، الدين، الخ، الموروثة. ودرس اشكال الانتقال من البنى القديمة الى الجديدة. (مجتمعاتنا العربية في طور انتقالي من هذا الى ذاك).

توقع ماركس اتجاهات (tendencies) عديدة بينها:

١ – عملية الافقار المطلق ستؤدي الى تحويل جل الفئات الاجتماعية الى بروليتاريا، أي تحول الاخيرة الى غالبية الشعب.

٢ – ان تحطم الفئات الوسطى المتعلمة، سينقل للطبقة العاملة عناصر المعرفة.

٣ – ان نظام المصانع سيحول جيش العمل الى قوة منظمة، منضبطة.

٤ – تتحول طبقة العمال من طبقة في ذاتها الى طبقة لذاتها في عملية تطور الرأسمالية عينها.

لا تزال المجتمعات الرأسمالية تواصل عمليات التمركز والتركز للثروة المجتمعية، وتعزز سطوة الرأسمال، غير ان تطور الطبقة العاملة لم يسر باتجاه الافقار المطلق. وأدت الثورات العلمية المتلاحقة، الى زيادة الانتاجية زيادة هائلة، وتحويل ثروات متزايدة (قوى عمل + وسائل انتاج) الى ميادين الخدمات (القطاع الثالث) والعسكرة (القطاع الرابع) وصناعة الثقافة (القطاع الخامس)، أدى حلول الآلات محل الجهد العضلي اولا، ثم الجهد الفكري للمنتج ثانيا، عبر الاتمتة، الى حصول اتجاهات جديدة في تطور البنية الاجتماعية:

تقلص العمل اليدوي، تقلص الطبقة العاملة، اتساع الفئات الوسطى.

ان توقع ماركس باتساع الطبقة العاملة ظل يتحقق منذ مطلع الرأسمالية (اواسط القرن السادس عشر) حتى منتصف القرن العشرين. بتعبير آخر ان "القوانين" التي رصدها ماركس عملت لفترة، وهي، كما قال ماركس "ميول" وليست قوانين، فالقوانين ثابتة لا تتغير، والميول تتعدل وتتحور.

ولدينا الآن ظاهرة تقلص الطبقة العاملة في الدول الصناعية المستقرة، حيث نشأت الرأسمالية، وعدم تطورها بدرجة كافية في الدول النامية، حيث نقلت الرأسمالية. وهناك حالات وسطية لا تزال تشهد تحقق "ميول" المجتمع الرأسمالي كما رصدها ماركس في حياته.

هذا الوضع بالطبع يعطي الثقل الاجتماعي للفئات الوسطى، وتترتب عليه استنتاجات كثيرة ذات طابع عملي، متروكة للممارسين.

وبالطبع فان هذه الميول الجديدة ليست ازلية هي الاخرى. ولا يستطيع احد ان يعرف على وجه الدقة ما سيحصل للبنى الاجتماعية في حالة التوصل الى مجتمع مؤتمت، أي مسير بأجهزة آلية، ذاتية التنظيم والتفكير (على غرار نظم الكومبيوتر الفائقة)، وهل ان مثل هذا المجتمع يوصل احتدام العلاقة بين التملك الخاص للثروة، والطابع المجتمعي الشامل للانتاج، الى مدى اقصى، ويحل، في الوقت نفسه، مشكلة توفر المعلومات اللازمة لتنظيم المجتمع، او تسييره وفق خطة منظمة، بدل الفوضى الضاربة، مع ما يتطلبه ذلك من اعادة توزيع الثروة.

رابعا –الماركسية والنظرية الاقتصادية

يشكل هذا الحقل ألمع وأوسع وأغزر نتاجات ماركس، وتلاميذه، جيل كاوتسكي وبوخارين وهيرشفيلد ولينين، وسواهم.

ينطوي هذاالحقل على عدة مجالات:

١ – المجال الارأس، أي الجوهري، وهو ما حاولت الالماح اليه سابقا، يقوم في هذا: ان نمط الانتاج الرأسمالي، القائم على مبدأ الربح (استخلاص فائض القيمة –المطلق اولا، فالنسبي لاحقا) لا يستطيع العيش بدون توسع (اعادة الانتاج الموسعة)، التي تتطلب توسعا في الاسواق (القومية والعالمية)، ويتحقق عبر التجارة الدولية، بتوسط الدولة (في القرون الاولى وخارج قيود هذا التوسط في عصر العولمة . يصف لنا ماركس في الجروندريسة Grundrisse وفي الاجزاء المجهولة من رأس المال . ان الرأسمالية تتوسع باطراد، وتخلق بتوسعها القيود والعقبات الخالقة للأزمة، وتحفزها الأزمة على ابتداع حلول وطرق جديدة، فتخرج منها الى توسع أكبر واشد عنفوانا، ويخلق التوسع الجديد قيودا وعقبات جديدة، تستثير بدورها محاولات تجاوز، وهكذا دواليك، حتى تصل الرأسمالية (كنظام عالمي) الى نقطة يتعذر بعدها تجاوز عقباتها هي، فتدق عندئذ ساعة النهاية. هذه هي رؤية ماركس.

هذا النمط من التنبؤ النظري يحيلنا الى السؤال الكبير الذي اثاره المؤرخ الماركسي بيتر جوان Peter Gran: ما هي الآماد الزمنية لمثل هذه العملية؟ قرن؟ قرنان؟ سبعة قرون؟ ويجيب: "نحن لا نعرف! لا ندري ان كنا في اواسط عمر التشكيلة الرأسمالية ام في اواخرها! وان القول بمرحلة اخيرة (عليا)، تخمين وحدس قد لا يصمدان امام الواقع."

يواجه الماركسي الواعي المشكلة التالية: ان آماد تطور التشكيلة لا تحسب على غرار آماد حياة البشر. لكن الوعد الثوري بتجاوز التشكيلة الرأسمالية يواجه محنة المصالح المادية الآنية للحركات والطبقات الثورية، فهي تريد تحقيق انجازات، هنا، الآن، وليس انتظار وعد (قد يكون بنظرها مجرد يوتوبيا). هذا الاحتدام بين الآماد (المدة) الموضوعية للتطور، والآماد المحدودة للحياة البشرية يصح هنا على المفكرين، كما يصح على قادة الحركات وانصارها. هذا التضاد يدفع الى تفكير رغائبي، الى "تمنيات" بـ"قرب النهاية". لعل مثل هذا التضاد يقف وراء القول بأن "الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية" (قد تكون مرحلة وسيطة)، او يقف وراء قول ستالين بامكان بناء الاشتراكية خلال حياة جيل واحد (حياته هو)، او قول (زعم) خروتشوف بأن بناء الشيوعية سيكتمل في التسعينيات (من القرن الماضي اثناء رئاسته طبعا).

٢ – وضع ماركس صورة (تنميط نظري او نمذجة) للرأسمالية الفردية كما نشأت في بريطانيا، وتنبأ بتحول ملامحها باتجاه الاحتكار. ووصف، معتمدا على الوقائع التاريخية وليس على الحدس، نموذجين لصعود نمط الانتاج الرأسمالي: صعود الحرفي الصغير، او صعود التاجر (أي اما من دائرة الانتاج، او دائرة التداول). ولو قيض لماركس ان يعيش حتى اواسط القرن العشرين، لوسع نموذجه الى عدة انماط:

٢ – أ –النمط الفردي/ الرأسمالية الفردية.

٢ – ب –رأسمالية الدولة.

٢ – ج –الرأسمالية القرابية.

٢ – د –خلائط او هجائن من أي اثنين، او حتى هذه الثلاثة.

اذا كان نمط الرأسمالية الفردية مفهوما، فان رأسمالية الدولة انطلقت من البلدان التي جاءت الى الرأسمالية متأخرة بعض الشيء (المانيا، ثم روسيا)، وقد سخر انجلز من الاشتراكيين الالمان، الذين ظنوا ان "قطاع الدولة" هو "بناء اشتراكي". (راجع مقالته عن قضايا السكن وغيرها من الامور في المانيا).

تكشف لنا رأسمالية الدولة والرأسمالية القرابية عن هجائن فرضها التطور (على شكل خطر عسكري من دول متطورة، او منافسة تجارية حادة). اما تطور الرأسمالية القرابية (اندونيسيا، السعودية، ودول اخرى) فيكشف لنا ان نقص المؤسسات الاجتماعية والقانونية الحامية للملكية، ونقص تطور المؤسسات المجتمعية الحديثة، يدفع باتجاه الاحتماء بشبكات القرابة (حتى على مستوى الحرفي الصغير).

لهذه الانماط، او خلائطها تمايزات عديدة، ونتائج سياسية خطيرة. منها ان شكل رأسمالية الدولة لا يسمح بتطور المؤسسات الديمقراطية بل يعيقها، ويعيق بالتالي، تطور الرأسمالية نفسها في المدى البعيد. اما النمط القرابي فانه يضيف الى ذلك عوائق اخرى اجتماعية وثقافية. ٣

–درس ماركس المكونات القطاعية للرأسمالية على اساس ثنائي:

القطاع الاول (انتاج وسائل المعيشة).

القطاع الثاني (انتاج وسائل الانتاج).

تطورت هذه البنية القطاعية في عدة اشكال تبعا لمستوى تطور القوى المنتجة. فكلما ازدادت القوة المنتجة تعاظما، قل العمل الضروري اللازم لانتاج وسائل المعيشة ووسائل الانتاج اللازمة لها. وزاد العمل الفائض المكرس للحاجات الاخرى. ويلاحظ ان لدينا في الاقل ثلاث بنى قطاعية، حاليا:

٣ – أ –الرأسمالية المتطورة –تحركت على النحو التالي:

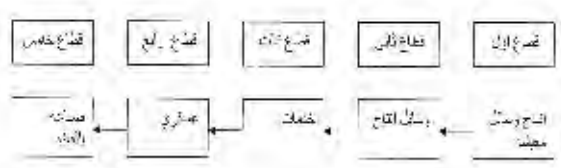

بلغ التصنيع و الانتاجية الرأسمالية شأنا عظيما اليوم بحيث ان قطاع "صناعة الثقافة culture Industry" يستوعب اليوم ٤٠٪ من قوى العمل في الولايات المتحدة مثلا.

٣ – ب –رأسمالية الدولة الاجتماعية (البلدان الاشتراكية):

لم تستطع دول التجربة الاجتماعية الوصول الى قطاع خدمات متطور، او قطاع خامس اكثر تطورا. وبقيت عواصم مثل موسكو ووارشو، تفتقر الى جهاز استنساخ، او فاكس، حتى الثمانينيات!

٣ – ج –رأسمالية الدولة الخليطة

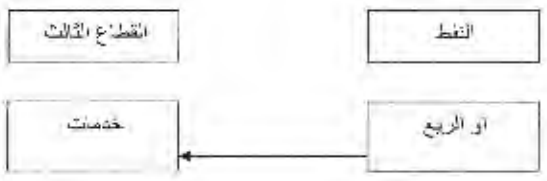

يفتقر هذا النموذج الى القطاع الثاني، الذي تقرر الانتاجية فيه مستوى تطوير ما يليه من قطاعات. كما يتميز بضعف القطاع الاول (انتاج وسائل المعيشة)، ولما كان الريع المستمد من الصناعات الاستخراجية (النفط) او بيع الخدمات السياسية والامنية والعسكرية للدول الغنية، عرضة للتقلب، فان التطور السريع لقطاع الخدمات يقف على رمال رخوة.

الخلاصة: المكونات القطاعية في تغير وتحول مستمرين، وان هذه التحولات مقبلة على ثورة كبرى، في حال تعميم الاتمتة.

٤ – يتميز النظام الرأسمالي العالمي اليوم بتداخل واسع ومتشعب، يزج شعوب الارض قاطبة. ولم يعد هذا النظام معتمدا على دولة ضامنة (انجلترا في القرن التاسع عشر، واميركا حتى عام ١٩٧٣، عام سقوط اتفاقية "بريتون وودز" الضامنة للمبادلات العالمية بالدولار).

ويتسم الوضع الحالي بأن التأثيرات المتبادلة للانتاجات القومية (كوحدات مؤلفة للبنية الكلية) يخلق وضعا خارج سيطرة أي وحدة منفردة فيه، مما يدفع باتجاه العمل الجماعي (الاتحاد الاوربي، مجموعة السبعة – صارت ثمانية –الكبار).

لاحظ مثلا التدخل الهائل لمعالجة الانهيار المالي في المكسيك (ضخ عشرات المليارات)، او معالجة الوضع الكوري الجنوبي (احد النمور الآسيوية)، او معالجة الوضع الاندونيسي. لقد ضخت الرأسمالية العالمية، عبر قنواتها الناظمة (البنك الدولي، صندوق النقد الدولي) ما يقارب ٢٠٠ مليار دولار لمعالجة أزمات ثلاثة بلدان ليست متطورة ولا اساسية في المنظومة.

والاستنتاج الاولي، ان المنظومة الكونية للرأسمالية لا تستطيع العمل بصورة متسقة، سلسلة، خالية من الأزمات، الا بسير كل اجزائها سيرا "طبيعيا"! بتعبير آخر ان منابع الأزمة في الرأسمالية عممت على سائر مكونات المنظومة، بدرجات متفاوتة الشدة بالطبع. كما ان الجهد التدخلي التنظيمي بات اكبر وأوسع. ولكن ماذا سيحصل، ومن سيضخ لمن، اذا اندلعت الأزمة في اكثر من موقع، وفي آن واحد!

بودي الاسترسال حول تحويرات بنية الانتاج (حلول الآلات محل العمل الفكري)، وتحويرات قانون القيمة الماركسي (الخاص بسلع الصناعات التحويلية) الى مظاهر جديدة لقوانين سلع صناعة الثقافة (دقيقة اعلان بخمسة ملايين جنيه، او سعر لاعب كرة قدم بـ٥٥ مليون جنيه، او سعر صورة او صوت لمغن شهير... الخ).

ان "موت" الماركسية "المعلن" سيثبت زيفه في اول أزمة واسعة، آتية. والغريب، كما تقول احدى الصحف الليبرالية البريطانية، ان "اتباع" ماركس، يهجرونه، اما المنظمون الرأسماليون فيعيدون اكتشافه! ويعلنون بدهشة: ان توقعات ماركس حول سيطرة الاقتصاد على السياسة صائبة، وتتحقق الآن امام ناظرينا، وان الأزمات المصاحبة للنمو، جزء من التكوين البنيوي للرأسمالية. هذه المفارقة مفهومة. فـ"الاتباع" يهجرون الماركسية بصيغتها الميتة، أي التي عرفوها ناقصة مشوهة، اما الرأسماليون فقد تحرروا من عقدة العداء لماركس، بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، وصاروا يرونه بتوازن اكبر. ما احوجنا الى ان نصاب بعدوى رؤيته بتوازن اكبر، ووضوح اشد!

❖ترجم الجزء الاول من الجروندريسة (أي الخطوط العامة للاقتصاد الرأسمالي) ونشر عن دار ابن خلدون (ترجمة عصام الخفاجي).

❖ترجم الجزء المجهول ونشر عن دار الفارابي (ترجمتي). ومن المفيد، بل الضروري الاطلاع عليها.

❖في حديث لبيتر جران خلال ندوة "العولمة" في القاهرة نيسان ,١٩٩٧ وللمؤلف كتاب قيّم ترجم الى العربية، يقارن فيه انماط الرأسمالية في العالم المتقدم والبلدان النامية اعتمادا على ثنائيات: بريطانيا، الهند، ايطاليا، مصر والاتحاد السوفييتي –العراق. وهو مهم للاطلاع.

رسالة من صلاح نيازي الى المدير العام لفضائية الجزيرة

السيد ثامر بن حمد ثامر آل ثاني – مدير عام فضائية الجزيرة

تحية طيبة وبعد

كان المفروض أن أكتب لك في حينها قبل شهر.

كنت أنتظر صديقي السيد سامي حداد لتزويدي باسمك وبرقم الفاكس، ولكن لا أدري ما الذي شغله، ولم يتصل حتى للاعتذار من عدم تمكنه من الحصول عليهما. (أعلمني فيما بعد أنه كان في الخارج).

السبب الثاني في هذا التأخير، هو أنني كنت أتوقع من ممثلك في قناة الجزيرة بلندن، السيد السويدان (آسف بصدق لأنني لا أعرف اسمه الأول)، أن يعتذر مني لكبر سني في الأقل، كإنسان متحضر، شفوياً أو خطياً، أن يراجع طبيباً نفسانياً، أو أن يترهبن في صومعة يمارس فيها شتى الرياضيات الروحية والمجاهدات والمجالدات إلى أن يكتب له الله الشفاء مما يعانيه من حالة وخيمة وبيلة.

المسألة باختصار.(وحاشى أن أسعى إلى الإيقاع برزقه، فشعاري الدائم "قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق" وأعوذ بالله من كليهما).

دعاني السيد سامي حداد إلى وجبة غداء معه. وفي مكتبه دخل علينا السيد السويدان. شرعت مرّته بدون سابق إنذار، تندلق على العراقيين. وجدها فرصة لا تُفَوّت ليجعلني فريسة عراقية صالحة للتنفيس عن تعقيدات باطنية أجهلها. تمعجت عضلات وجهه أولاً، ومن ثمّ توترت أوداجه واضطرب قفصه الصدري. قلتُ في نفسي هذا الرجل خرج عن آدميته. أصبح أشبه ما يكون بآلة تعذيب أمامي على وشك الإجهاز.

ليخرج عن آدميته ما شاء ولكن ليفعل ذلك في الخلاء أيّ خلاء وليس في مؤسسة رسمية. ليكرع من دم العراقيين في السرّ، وما أكثره هذه الأيام! لا أن يرفع كأسه عالياً ويصيح نخب صحة الجميع.

بدأ محاورته أوّلاً على النحو التالي: انتم العراقيين لا تحبون الرأي الآخر (قلت لنفسي: المذاهب الإسلامية الكبرى ظهرت بالعراق، وهذا الرجل الذي تتطلب مهنته أن يكون بمنتهى اللباقة والفطنة والدهاء يتهمنا شرّ اتهام. دع عنك هذا ولكن أين آداب الضيافة؟ كنتُ ضيفاً. كل الحركات الفكرية الإسلامية ظهرت بالعراق وهذا الرجل سادر في غيّه. أكثر من مائة صحيفة الآن بالعراق، أكثر من مائة حزب الآن بالعراق، وما من قطع للآذان ويسمح باستعمال الفاكس وصحون الفضائيات، إذن ما الذي نفعله أكثر من هذا يا سيد سويدان؟).

ثمّ قال– لا فُضّ فوه–:

" المقابر الجماعية أكاذيب" ثُمّ روى كيف التقى بإيراني يتكلم قليلاً من اللغة العربية في باب مطعم بلندن وقال له ما أموات المقابر الجماعية إلا الجنود العراقيون الذين قُتلوا بإيران وحينما أعادتهم إيران دُفِنوا في تلك المقابر الجماعية.

هل رأيتم يا رؤساءه كيف تنحصر كل مصادر السيد السويدان بمصدر واحد، وما أدراك ما هو؟ إيراني لا على التعيين. (كيف وثق فيه ولماذا؟) ولا يتكلم العربية إلاّ قليلاً. هذا الإيراني لم يكن يلقي محاضرة موثقة بالأسانيد والإحصائيات والتواريخ في محفل ثقافي أو ندوة علمية أو قاعة جامعية. مجرد لقاء عابر في باب مطعم. لا أدري كيف جوّز السيد السويدان لنفسه أن ينبش قبور أمواتنا ليهينهم علناً، وأمام عراقيّ وهو ضيف. أتساءل بصدق: في أية بيئة تعلم السيد السويدان هذا التفكير الموضوعي المختبري ؟ ومن أيّ حقل معرفي من حقول الجامعة تخرج؟

لم يكتفِ السويدان بذلك بل انفتحت شهيته أكثر. قال أشياء عن الأكراد لا يليق بي أن أذكرها ولا يليق بكم أن تسمعوها. ولكنه برّر لصدام حسين استعمال القنابل الكيمياوية ضد الأكراد"، ربما لاحظ عجبي الغاضب فقال لأن الايرانيين كانوا يحتلون المنطقة.(بالمناسبة شاهدتُ قبل يومين برنامجا وثائقياً عن علي كيمياوي وكيف أصدر أوامره بضرب السكان وفي أكثر من بلدة، بالقنابل الكيمياوية، ولم يكن بين الأموات جندي أو مدني إيراني واحد).

مما زاد الطين بلة أنّ كل ما نفثه السويدان بوجهي نفثاً تمّ في حوالي خمس دقائق مكتظة بالتشنج، ولم يبق في قوسه من منْزع.كان الرجل مفخّخاً إلى أعلى درجات التفخيخ.

كنت أعزو سابقاً مواقف بعض العاملين في مؤسستكم من مآسي شعبنا العراقي المريعة، وهي عموما مواقف غير مهنية وغير إنسانية وغير مشرّفة، إلى سوء فهم أو جهل أو لغاية في نفس يعقوب. (اللعنة على كلّ دين وعلى كلّ فتوى وعلى كل فلسفة وعلى كل قناة فضائية تصفق للذبح وتفخيخ الأطفال المقعدين. للأسف بعض العاملين والعاملات في مؤسستكم فعل أكثر من هذا وصفق حتى لذبح النساء اللواتي كنّ يعملن في المجالات الإنسانية). قلت كنت أعزو، ولكن السيد السويدان أكّد لي وكأنْ سياسة مؤسستكم مدروسة بعناية لإشاعة الفتنة الدموية وتصدير الموت.

شتم السيد السويدان بعد ذلك فضائية "الفيحاء" ومقدمها الدكتور هشام الديوان. قلت لنفسي : شتم هذا الرجل في بداية الجلسة العراقيين لأنهم لا يؤمنون بالرأي الآخر، فهل شتيمته لفضائية أخرى ولزميل مهنة مثله تدل على حبّ سويدان للرأي الآخر؟

للحديث صلة وصلات، ولكن أتوقع منكم أيها المسؤولون في هذه الأثناء كما أتوقع عادة من أناس متحضرين أن تعلموني عن وصول هذه الرسالة على جناح السرعة أوّلاً، وأن تخبروني : هل مواقف السيد السويدان الشاذّة الفاذّة هي المواقف الرسمية لمؤسستكم؟ وما الذي أنتم فاعلوه؟ حتى نطوي كأناس متحضرين هذه الصفحة المذلّة.

المخلص

صلاح نيازي

ملحوظة: أجرى معي السيد حسين صالح مقابلة عن الشاعر التركي ناظم حكمت قبل أشهر. وبما أنني لم أوقع عقداً ولم أتسلم مكافأة حتى أرجعها، لذا أرجو عدم بثّها ، كلاً أو جزءاً . (سأبلغ محاميّ الخاصّ بهذا الشأن).